حالا القبض والبسط عند الصوفية

بقلم الأستاذ

أبو الوفا التفتازانى

مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف

بكلية الآداب بجامعة القاهرة

١ — الحال عند الصوفية معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا استجلاب ولا اكتساب ، ولذلك كانت الأحوال محض فضل من الله ، أو قل هى مواهب يهبها الحق لأوليائه ولا دخل لإرادة السالك لطريقهم فى التحقق بها .

وكان أبو على الدقاق من شيوخ الصوفية يقول فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم: إنه ليغان (أى : ليغطى) على قلبى حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم سبعين مرة : أنه كان صلى الله عليه وسلم أبدا فى الترقى من أحواله ، فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها فربما حصلت له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها فكان يعدها غينا بالإضافة إلى ما حصل فيها ، فأبدا كانت أحواله فى التزايد ، ومقدورات الحق سبحانه من الألطاف لا نهاية لها ، فالعبد أبدا فى ارتقاء ، وعلى هذا يحمل قولهم : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

٢ — ومن الأحوال التى يصادفها السالكون لطريق الله عز وجل حالا القبض والبسط ، والقبض والبسط حالتان نفسيتان متعاقبتان ، وفى القبض تشعر نفس السالك بالقلق والحزن والألم ، أما فى البسط فتشعر بالفرح والطمأنينة والرضا :

ويرى بعض الصوفية أن السالك يترقى إلى القبض والبسط بعد معاناته للخوف والرجاء ، من هؤلاء القشيرى إذ يظهرنا على هذا قائلا : « القبض والبسط حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء ، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف

للمستأنف (يعنى للمستقبل) ، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف ، ومن الفصل بين القبض والخوف والبسط والرجاء ؛ أن الخوف إنما يكون من شيء فى المستقبل ، إما أن يخاف فوت محبوب أو هجوم محذور ، وكذلك الرجاء إنما يكون بتأميل محبوب فى المستقبل أو بتطلع زوال محذور ، وكفاية مكروه فى المستأنف . أما القبض فلمعنى حاصل فى الوقت (يعنى فى الحاضر) وكذلك البسط ، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه فى حالتيه بآجله ، وصاحب القبض والبسط أخَّذَ وقته بوارد غلب عليه فى عاجله » .

٣ — وعلى السالك للطريق أن يكون فى حالى القبض والبسط خاضعاً لحكم الوقت ، فقد يشكل على صاحب القبض سببه فيجد فى قلبه قبضاً لا يدرى موجبه ولا سببه ، وسبيل صاحب هذا القبض التسليم لله حتى يمضى ذلك الوقت ، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذى يقبض ويبسط ، وكذلك أدب السالك فى البسط الخشية من أن يزل ، ويحجب عن الله ، بأن يسىء الأدب معه تعالى بالاعتراض على حال أقامه الله فيه .

٤ — وقد أفاض الشاذلية من الصوفية فى شرح دقائق أحوال النفس فى القبض والبسط .

فيصف لنا ابن عطاء الله السكندرى السالك بأنه تارة فى حال القبض ، وتارة أخرى فى حال البسط لا يملك لنفسه منهما شيئاً ، أى أنه فيهما بلا إرادة أو تدبير ، وكيف يكون له فيهما إرادة وتدبير وهما حالان واردان عليه بمحض إرادة الله ؟ ثم أن الله قد يخرجه عن حالى القبض والبسط بإرادته المطلقة ، وذلك لكى لا يركن السالك إلى شىء منهما فيبقى بربه ، وفى هذا يقول ابن عطاء الله للسالك : « بسطك كى لا يبقيك مع القبض ، وقبضك كى لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كى لا تكون لشىء دونه » .

وفى البسط عند صوفينا السكندرى حظ النفس بوجود الفرح ، ولا كذلك القبض ؛ فليس فيه حظ النفس ، فيقول فى الحكم : « البسط تأخذ النفس حظها منه بوجود الفرح ، والقبض لا حظ للنفس فيه » .

ولما كان فى البسط حظ النفس ، وفى القبض انعدام حظها ، فإن العارفين

— كما يقول ابن عطاء الله — يشتد خوفهم فى البسط لأنهم يخافون من كل ما فيه حظ النفس ، وهم على العكس من ذلك فى حال القبض ، فهم يرونه أقرب إلى السلامة لما فيه من انعدام حظ النفس ، فإذا تبين هذا تبين معنى قول صوفينا فى حكمة من حكمه : « العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ، ولا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل » .

ولذا يؤثر ابن عطاء الله حال القبض على حال البسط ، وذلك لأنه يخشى على السالك من الخروج عن حكم وقته — وهو أهم آداب سلوكه — فى حال البسط ، وليس الأمر كذلك فى حال القبض . فيقول ابن عطاء الله فى هذا المعنى : « البسط مزلة أقدام الرجال ، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم . والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد إذ هو فى أسر قبضة الله ، وإحاطة الحق محيطة به . ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه ؟ والبسط خروج عن حكم وقته ، والقبض هو اللائق بهذه الدار » .

ويشبه ابن عطاء الله القبض بالليل المظلم ، والبسط بالنهار المشرق ، ويبين للمريد أن ليل القبض ربما يكون أنفع له من إشراق نهار البسط ، وهو لا يدرى أيهما أكثر نفعاً له ، لأن كلاهما خارج عن إرادته ، ومردود إلى إرادة الله ومشيئته ، وفى هذا يقول فى عبارة جميلة من عبارات الحكم لمريده السالك : « ربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط ، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً » .

وقد تأثر ابن عطاء الله فى تشبيهه القبض بالليل والبسط بالنهار بالشيخ أبى الحسن الشاذلى مؤسس المدرسة الشاذلية ، فالشاذلى قد سبقه إلى هذا التشبيه .

وقد نبه ابن عباد النفزى الرندى فى شرحه للحكم العطائية . إلى أن الشاذلية ، ومنهم ابن عطاء الله ، قد استوفوا الكلام فى القبض والبسط على خلاف غيرهم من الصوفية الذين لا توجد لهم فى القبض والبسط إلا إشارات فى أمور جملية .